خطبة: قواعد المجتمع الصالح والحكم الرشيد

الخطيب: يحيى سليمان العقيلي

معاشر المؤمنين

حديثنا اليوم ، وبلادنا تتلمّس طريقها للمرحلة القادمة ، والتي نسأل الله تعالى ان تكون مرحلةَ خيرٍ وبركة ، وأمنٍ وأمان ، ووحدةٍ وتعاون ، واعتصامٍ بحبل الله تعالى كما أمر جلّ وعلا وقال " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ ،،،،الاية " (ال عمران )

بأن نعرض إنموذجا لحكمٍ صالحٍ وإدارةٍ رشيدة أسسّت لمجتمعٍ صالح ،و أحدثت تغييرا عميقا في أثره ونتائجه ، فريدا في أسلوبه ومدته  ، لم يدم الا عامين ونيف لكن نتائجه وبركاته ظهرت في أيامه الاولى له ،أنها الخلافة الراشدة الخامسة ايام حكم عمر بن عبدالعزيز  اميرِ المؤمنين رحمه الله ورضي عنه ،،

قال عمر بن أسيد "إنما وُّلي عمرُ بن عبد العزيز ثلاثين شهرا، لا والله ما مات حتى جعل الرجلُ يأتينا بالمال العظيم، فيقول اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء..

فما يبرح حتى يرجع بماله، يتذكر من يضعه فيه فلا يجده.. قد أغنى عمرُ الناسَ "

نعم عباد الله ، فلنعرض بإيجاز اركانَ ذلك الحكم الصالح وقواعد تلك الادارة الراشدة التي أوجدت مجتمعا آمناً وصالحا ، والتي كانت حجةَ الزمان على من ييأسون من الاصلاح والتغيير للأصلح ، ولمن ينشدون حكما رشيدا ومجتمعا صالحا يرتبط فيه المحكوم بالحاكم ولاءً وطاعةً ونصحا ، والحاكم بالمحكوم رحمة وعدلا ونصحا.

قال صلى الله عليه وسلم " الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنا: لِمَنْ؟ قالَ: لِلَّهِ ولِكِتابِهِ ولِرَسولِهِ ولأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وعامَّتِهِمْ."

معاشر المؤمنين

كان أولُّ اركانِ  حكم عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ورضي عنه ، به بدأ حكمه واستفتح خلافتُه : التورعَ عن اموال المسلمين ، وبدأ بنفسه  ، فعندما قدّموا له موكبَ الخلافة أمر بضمّه لبيت المال ، ثم أرجع أموالا وهبها له سابقوه من خلفاء بني أمية ، ثم ثنّى  بزوجته فاطمةُ بنتِ عبدالملك في جواهر وُهبت لها وقال لها :

" إما أنا او تلك الأموال يافاطمة " ، فما ترددت في ارجاعها لبيت المال ، فقد كانت خير معينٍ له على ولايته ،، ثم نظر في أموال بني أمية ، فما أُخذ من غير وجه حقٍّ ضمّه لبيت مال المسلمين ، حتى ثاروا عليه وتمرّد بعضهم ، فأخذهم بالحزم والتهديد فاستكانوا له على غير رضا .

اما ثاني اركان حكمه ، فهو الشورى التي جعلها الله تعالى قاعدةً للحكم الاسلامي ، قال تعالى " وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ " (38 الشورى )

فاختار مجلسا للشورى من عشرة فقهاء كانوا أهل حلٍّ وعقد وأهل نصحٍ وأمانة ، كانوا محل مشورته ونصحه ووعظه ، وأعانوه على إصلاحاته المباركة ، فعّم الخيرُ ، وساد الأمنُ ، وحلّت البركة ، حتى لمِس رعاةُ الأغنام أمرا عجبا ، رأوا الذئاب لاتعدو على أغنامهم !! قال مالك بن دينار : لما استعمل عمر بن عبد العزيز على الناس قال رعاء الشاء : من هذا العبد الصالح - الذي قام على الناس ؟ قيل لهم : وما علمكم بذلك ؟ قالوا : إنه إذا قام على الناس خليفةُ عدلٍ كفت الذئاب عن شائنا .

ويزول العجبُ ، عباد الله ، عندما نعلم ان ذلك سيحدث اخر الزمان حين يسود العدلُ والحكمُ بشريعة الإسلام زمن الخلافة التي ستكون على منهاج النبّوة، كما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

أما ثالث اركان حكمه : فهو العدل ونبذ الظلم ، فالعدل هو أساس الحكم ، وعليه قامت السموات والأرض ، فال تعالى " خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ( النحل 3 ) قال الطبري رحمه الله : " خلق ربكم أيها الناس السماوات والأرض بالعدل وهو الحق"

فبدأ عمرُ من أول يومٍ بإزاحة الولاةِ الظلمة ، وتوليةِ أهل القوة والأمانة ، الذين أعانوه على مهمته الاصلاحية  في ادارة شؤون الدولة والقضاء ، ولم يتركهم سدى بل كان يتعاهدهم بالنصح والمتابعة  ،

كتب إلى بعض ولاته : «أوصيك بتقوى الله الذي لا يَقبل غيرها، ولا يَرحم إلا أهلها، ولا يُثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل»؛ (البداية والنهاية)

وكان من سياسته ، رحمه الله، ورضي عنه : ان فتح أبوابه لمن وقعت عليه مظلمةٌ او كانت له حاجة ، لايُحجبون عن بابه ، كيف لا ؟ وهو يعلم قوله صلى الله عليه وسلم : "إن الله سائلٌ كلَّ راعٍ عما استرعاه ، أحفظ ذلك أم ضيّع ؟ حتى يسألَ الرجلَ عن أهل بيته " ( رواه ابن حبان ، وصححه الألباني )

جاءه رجل يشتكيه هو في ارضٍ له في حلوان بمصر  ، فسأله عن  موقعها وصفتها فعرّفها الرجل وعرض شكايته ، فقال  عمر : أعرفها ولي فيها شركاء ، قم لنعرضها على القاضي ، فتعجّب الرجلُ من هذا الخليفة الذي يقبل الشكاية على نفسه ،

واستمع القاضي للشاكي واستعلم عن حقيقة الامر وتوثّق منه واستمع لعمر ، ثم أصدر حكمه بإرجاع الأرض للرجل ، فقال عمر متظاهرا بالاعتراض : " ولكننا أنفقنا عليها من أموالنا " ، فرد القاضي بحزم : ماأنفقتوه قد أخذتوه من غلّتها ،، فتبّسم عمر وقال له : " والله لو حكمت بغير هذا ماوليتك قط " .

هكذا كان حكمه وتلك كانت أثاره رحمه الله ورضي عنه حتى عُدّت خلافتُه خلافةً راشدة

وفقنا الله لرضاه وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته ، أقول ماتسمعون وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم .

 معاشر المؤمنين

بهذا العدل والورع ، وبهذا الانقياد لشرع الله ، وتولية الأمناء الأقوياء ، والشورى ، وبهذا النصح للأمّةِ ، حكم عمرُ بن عبدالعزيز أمّته ، التي بادلته حبّاً صادقا وولاءً وطاعةً ونصحا ، فعاش المسلمون وغيرُ المسلمين فترةً من الزمان كانت شمعةً مضيئة ونبراسا من نور ، حتى عُدّت خلافته خلافة راشدة ، وتحقّق في تلك الحقبة من الزمن العلاقةُ المثلى بين الحاكم والمحكوم ، بقولُ المصطفى صلى الله عليه وسلم " خِيارُ أئمَّتِكُمُ الَّذينَ تحبُّونَهُم ويحبُّونَكُم وتُصلُّونَ علَيهِم ويصلُّونَ علَيكُم " ،

كما تحقق في الأمة ذاك الزمان المجتمع الصالح المنشود الذي تتّنزل عليه البركات والرحمات ،

ذكر الطبري في تاريخه : أن الناس زمن الخلفاء قبل عمر اذا التقوا تحدثوا عن القصور والضيع والبناء والجواري ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ما وراءك الليلة، وكم تحفظ من القرآن ومتى تختم، ومتى ختمت، وما تصوم من الشهر؟

وصدق الله تعالى إذ يقول " ( والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ) (التوبة٧١)